(١٨)
المحاسبة

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدَّثنا في الجمعة الماضية عن مقامٍ من مقامات الدين ، ومنزلٍ من منازل السالكين إلى الله تبارك وتعالى وهو المراقبة .

ويكمل هذا المقام مقام آخر هو المحاسبة . فالمؤمن يراقب ربَّه ، ويحاسب نفسه[١] .

النفسُ أمَّارة بالسُّوء :

هذه النفس لا تُترك سُدى ، لا بد للإنسان أن يكون يقظًا لها ، فهي كما وصفها الله تعالى : (أمَّارة بالسوء) ، ميَّالة إلى الشر ، فرَّارة من الخير ، إذا تركتَها وأهملتَها سَدَرت في غلوائها ، ومَضت في طريقها غير مبالية بأمر الله تعالى ولا نهيه ، وهناك تُوقِعك في مواقع الردى ، وتهلكك حيث لا نجاة ولا خلاص .

وجوب تزكية النفس :

ومن هنا كان على المسلم أن يُزكِّيَ نفسه حتى يحصل على الفلاح الذي قال الله تبارك وتعالى فيه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٧-١٠) .

النفس مستعدّة للفجور وللتقوى ، ولعل استعدادها للفجور أقوى ، لذلك قدَّم الله الفجور على التقوى ، فقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (الشمس:٨) ، إذا تُركت لأهوائها فإنها تميل إلى الفجور .

---

(١) ولهذا قرن بينهما الإمام الغزالي في الكتاب الثامن من ربع المنجيات من الإحياء ، فقال : كتاب المراقبة والمحاسبة .

OBEIKAN.COM

ولهذا كان عليك أيها الإنسان أن تعمل على تزكية نفسك : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩) أي : طهَّرها ونمَّاها . طهَّرها من الشرك . من المعاصي . من الرذائل ، وحلاَّها ونمَّاها بالتوحيد والطَّاعات والفضائل .

لا بدَّ من تخلية ومن تحلية ، لا بد من هدم ومن بناء ، لا بد أن تهدم الشَّر في نفسك وأن تبني الخير على أنقاضه . هذا ما ينبغي للإنسان المؤمن أن يفعله .

المحاسبة سبيل لتزكية النفس :

وإنما يفعل المكلَّف ذلك إذا كان يقظًا لنفسه غير غافل عنها ، يُحاسبها دائما كما ورد في الحديث الذي رواه أبوذر أنه مما كان في صحف إبراهيم : «ينبغي أن يكون للعاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربَّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكَّر فيها في صُنع الله عزَّ وجلَّ ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب»[1] .

تقسيم الإنسان ساعاته وتوزيع أوقاته :

ينبغي أن يقسم الإنسان ساعاته ، ينبغي أن يُوزِّع أوقاته هكذا ، فلا يدع الأمور (سبهللة) ، لا يدع كل أوقاته تضيع عبثًا ، لا ، إن كان ولا بدَّ فساعة لقلبك وساعة لربك . أما أن تجعل ثلاثة وعشرين ساعةً لقلبك وساعة واحدة لربِّك فهذا لا يجوز . والساعة التي لربك لا تُخلص لربك ، حتى إنك إذا وقفت بين يديه مصليًا فإن قلبك ليس معك ، قلبك في الدنيا ، قلما تخشع ، قلما تطمئن ، فماذا لله تعالى من ساعاتك؟!

جاء في الحديث : «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك»[2].

---

(١) رواه ابن حبان في البر والإحسان (٣٦١) ، وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف جدًا ، وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦،١٦٧) .

(٢) رواه الحاكم في الرقاق (٤/٣٠٦) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (٧/٢٦٣) ، عن عبد الله بن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧) .

OBEIKAN.COM

لا بد أن تنظر أنَّ عندك صحَّة ربما يعتريها السَّقَم ، وعندك غنًى عن الناس قد يلحقه الفقر ، وعندك فراغ ربما لا يستمر لك ، وعندك حياة لا بد أن تنتهي بالموت ، والموت يأتيك دون مقدِّمات ، فليس من الضروري أن تمرض وتدخل المستشفى وتعرض على الأطباء . كم من أناس ماتوا فجأة؟ كم من أناس ماتوا بالسكتة أو بالذبحة؟ كم من أناس ماتوا بحوادث لم تكن تخطر لهم على بال؟

الدنيا ثلاثة أيام :

إذن فالحزم والاحتياط أن تنظر لنفسك ، فالدنيا ثلاثة أيام ـ كما روي في بعض الآثار ـ : يومٌ مضى لا تستطيع أن تسترجعه ، ويومٌ آتٍ لا تعرف أتدركه أم لا تدركه ، ويوم أنت فيه فهذا هو الذي ينبغي أن تهتم به[1] .

الدنيا ثلاث ساعات :

بل قال بعض الناس : الدنيا ثلاث ساعات : ساعةٌ مضت ، وساعةٌ آتية ربما لا تدركها ، وساعةٌ أنت فيها فهي التي لك فبادر إليها[2] . ولا يقصد بالساعة : الساعة الفلكية (ستين دقيقة) ، ولكن : اللحظة التي أنت فيها .

إنَّما هذه الحياة متاع ... والغَرور الغَرور مَنْ يَجْتبيها

ما مضى فات والمؤمَّل غيب ... ولك السَّاعة التي أنت فيها

بل قال إمام الحرمين : «الدنيا ثلاثة أنفاس : نَفَسٌ مضى ، ونَفَسٌ آت ، ونَفَسٌ أنت فيه»[3] . كانوا يحسبونها بالنَّفَسِ ، فربما تتنفس نَفَسًا ولا يدركك النَّفَسُ الآتي أو لا تدركه فالعمر إنما هو أنفاس محدودة ، ولحظات معدودة .

كيفيَّة المحاسبة :

لا بدَّ من محاسبة النفس ، تُحاسبها قبل العمل ، وتحاسبها أثناء العمل ، وتحاسبها بعد العمل :

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير صـ(١٩٦) ، عن الحسن البصري .

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٤٠٣/٤) .

(٣) انظر فيض القدير (٦٥/٥) .

OBEIKAN.COM

أولاً قبل العمل :

قبل العمل هو نوع من المشارطة على النفس ، تشترط أن لا تُقْدم على حرام ، بل لا تُقْدم على شبهة ، بل لا تُقْدم على مكروه . كلما ارتقيتَ زدتَ في حسابها .

إذا أردت عبادةً فانظر ماذا أردت بها : أأردتَ بها وجْهَ الله أم وجوهَ الناس؟ وهل تؤدِّيها على الوجه المشروع أو لا ؟

إذا أردتَ عملاً من أعمال الدنيا فابحث قبل أن تُقْدم عليه عن مشروعيَّته : أحلالٌ هو أم حرامٌ ؟ ألك حقٌّ أو لا ؟ وماذا تريد بهذا العمل ؟ هكذا يصنع المحاسبون لأنفسهم .

ثانيًا : تحاسبها أثناء العمل :

فإذا كان من المأمورات كالصلاة والصيام والزكاة ، يجب أن تؤديه على الوجه الشرعي ، بحيث يقبل عند الله تعالى ، الذي خلق الناس ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وأحسن العمل كما قال الفضيل بن عياض : أن يكون خالصا صوابا ، فإنه إذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل ، وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل ، وخلوصته أن يكون لله ، وصوابه أن يكون على السنة[1] .

فلكل عبادة أركان وشروط ، وآداب ومكملات ، والناس يتفاوتون في أداء هذه الأمور ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (فاطر:٣٢) .

ثالثا : تحاسبها بعد العمل :

ثم بعد العمل لا بدَّ أن تحاسب نفسك : هل أدَّيته كما ينبغي أو قصرت فيه؟ هل أتقنته كما يحبُّ الله تعالى ـ « إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[2] ،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٣) .

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦) ، والطبراني في الأوسط (٨٩٧) ، والبيهقي في الشعب باب الأمانات (٥٣١٢) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠) .

OBEIKAN.COM

« إنَّ الله كتب الإحسانَ على كل شيء »[1] ـ أم أدَّيته أداء؟ هل راعيتَ وجْهَ الله تعالى فيه أو لا ؟ هل خنت عملك ؟ هل غششت فيه ؟ هل تعدَّيت حدودك ؟ هل تعدَّيت على حقِّ مخلوق آخر ؟

من وصايا السلف في المحاسبة :

حاسب نفسك ، حاسب نفسك قبل أن تُحاسب . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزنوا »[2] . زن عملك قبل يوزن ، واسأل نفسك قبل أن يصير السؤال إلى غيرك ، ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧).

يقول ميمون بن مهران ، من علماء التابعين : التقيُّ أشدُّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح ، [3] من سلطان غاشم لا يتسامح ولا يتساهل ، ومن شريك شحيح يحاسبك على النقير والقطمير والدانق ، ولا يُسَامحك في شيء مهما صغر أو قل .

هكذا ينبغي للإنسان أن يكون مع نفسه . مع الناس يتسامح ، ومع نفسه يتشدَّد ، هكذا كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم .

يقول الإمام الحسن البصري رضي الله عنه : المؤمن قوَّام على نفسه يحاسبها لله عزَّ وجلَّ ، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما ثَقُل الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، وإنَّ المؤمن يَفْجَؤه الشيء ، ثم يقول لنفسه : واللهِ إنِّي لراغب فيه ، ولكنِّي أتركه لله عزَّ وجلَّ ،

---

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥) ، وأحمد (١٧١١٣) ، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥) ، والترمذي في الديات (١٤٠٩) ، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥) ، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠) ، عن شداد بن أوس .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في الزهد (٣٥٦٠٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩) .

OBEIKAN.COM

ويَفْرُط منه الشيء ، ثم يقول لنفسه : لماذا فعلتِ كذا ؟ ولماذا صنعتِ كذا ؟ واللهِ لا أُعْذَر بهذا ، ولا أعود إلى مثله أبدًا[1].

المحاسبة على البواعث :

ويقول الحسن رضي الله عنه أيضًا : المؤمن يقف مع نفسه دائمًا يقول لها : ماذا أردتُ بِشَرْبَتي؟ ماذا أردتُ بِمِشْيَتي هذه؟ ماذا أردتُ بزيارتي[2]؟ كانوا يبحثون عن البواعث ، أيريدون بها وجْهَ الله أم وجوه العباد؟ أيريدون الدنيا أم يريدون الآخرة؟

النفس دابَّة حرون :

هكذا كانوا ، يحاولون أن يُلْزِموا أنفسهم بما ألزمهم الله تعالى به ، يلزمُونها ويخطمونها ، فهي دابَّة حرون[3] لا تُترك لأهوائها وشهواتها . هي كما قال الإمام الغزالي : إنها عند الشهوة بهيمة ، وعند الغضب سبُع ، وعند النعمة تراها فرعونًا ، وعند المصيبة تراها طفلاً صغيرًا ، وعند الجوع تراها مجنونًا ، وعند الشبع تراها مختالاً فخورًا .

كحمارِ السُّوءِ إنْ أشْبَعْتَهُ رَمَحَ الناسَ وإنْ جَاعَ نَهَقْ!

هذه هي النفس .

النفس سبب الوقوع في المعاصي :

الله تعالى يقول على لسان امرأة العزيز : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ (يوسف:٥٣) . انظروا إلى هذه الصيغة : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، لم يقل : آمرة بالسوء ، بل قال : (أمَّارة) كثيرة الأمر بالسوء ، باستمرار ، تُزيِّن لك الباطل ، وتُزيِّن لك الشر ، وتُغْويك بالحرام ، فحاول أن تلجمها بلجام التقوى .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٠٧) .

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (٤) .

(٣) قال في مختار الصحاح : فرس حرون : لا ينقاد ، وإذا اشتدَّ به الجري وقف . [مادة : ح ر ن] .

OBEIKAN.COM

قَتْل الأخ أخاه :

أول معصية وقعت في الأرض ، كانت بسبب تسويل النفس . قتل ابنُ آدم أخاه ـ قابيل قتل أخاه هابيل ـ بلا ذنب إلا أن الله تقبَّل منه قُربانه ولم يتقبَّل من أخيه فـ ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:٢٧،٢٨) . ولكن هذا كله لم يُردعه ، ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٣٠) ، هذه النفس الأمَّارة تجعل الأخ يقتل أخاه .

تسويل نفوس إخوة يوسف :

هذه النفس الأمَّارة هي التي سوَّلت لأبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . أبناء بيت النبوَّة ، أن يصنعوا بأخيهم يوسُف ما لا يُتصوَّر ، ألقوه في غَيابة الجُبِّ ، ورمَوْه في تلك البئر المهجورة ، ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ (يوسف:١٦) بكاءَ التماسيح ودموع التماسيح ، يختلقون الأكاذيب ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ (يوسف:١٧،١٨) . فماذا قال يعقوب عليه السلام؟ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨).

تسويل نفس السامري :

السامريُّ الذي أضل بني إسرائيل حين اتَّخذ عجلاً جسدًا له خوار . صُنِع من الحليِّ ، وقال هذا : إلهكم وإله موسى ، فأضلَّ القوم وعبدوا العجل في غَيْبة موسى . ولما جاء موسى وسأله عن هذا الضلال الذي صنعه ، ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ (طه:٩٦).

خطر النفس الأمَّارة بالسوء من ناحيتين :

إنها النفس . النفس الأمَّارة بالسُّوء ، يمكن أن توقعك في كل شرٍّ ، وتصدُّك عن كل خير .

OBEIKAN.COM

العدو الداخلي :

يقول الإمام الغزالي[1] : إن هذه النفس خطر من ناحيتين ، الناحية الأولى : أنها عدوٌّ من داخل جسدك ، والعدوُّ إذا كان من الداخل كان أصعب ، إذا كان اللص من خارج البيت يمكن أن تحكم الإغلاق ، ولكن إذا كان من أهل البيت كيف تستطيع الاحتيال منه والهروب من شرِّه .

العدو المحبوب :

ثمَّ يقول : الناحية الأخرى : أنها عدوٌّ محبوبٌ ، والعدوُّ المحبوب يَعْمَى الإنسان عن عيوبه ولا يتفطَّن له كما قال الشاعر :

وعينُ الرضى عن كلِّ عيب كليلة[2]

وكما ورد : « حبُّك للشيء يعمي ويُصم »[3] .

ولهذا فالإنسان أعمى عن عيوب نفسه . يقول في ذلك الشاعر :

نفسي إلى ما ضَرَّني داعٍ تكثر أسقامي وأوجاعي

كيف احتيالي من عدوِّي إذا كان عدوِّي بين أضلاعي[4]؟

من هنا كانت خطورة هذه النَّفس ، فتحتاج دائمًا إلى مراقبة وإلى مشارطة وإلى محاسبة ، قبل العمل وبعد العمل ، ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ (الحشر:١٨) لتنظر نفسٌ . كلُّ نفس ما قدَّمت لغدها ومصيرها ولآخرتها .

النفس اللوَّامة :

لا بدَّ من هذه الوقفة مع النفس . فإن وقعت في معصية أو فرَّطت في طاعة ، لا بدَّ أن يلومها وأن يقرعها حتى لا تستهتر وتستمرئ هذا الطريق ، وهذه هي

---

(١) منهاج العابدين صـ١١٩

(٢) من شعر عبد الله بن معاوية الجعفري .

(٣) رواه البيهقي في الشعب باب في محبة الله (٤١٢) ، عن أبي الدرداء ، موقوفا .

(٤) من شعر ابن الأحنف .

OBEIKAN.COM

النفس اللوَّامة ، التي ذكرها الله تعالى في القرآن : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة:٢) ، التي تلومُ صاحبها دائمًا ، ولا تتركه ، وهذه مرحلة من مراحل النفس ، أو مرتبة من مراتبها .

النفس إذا حاسبتها وراقبتها ، وحاولت تزكيتها تنتقل من الأمَّارة إلى اللوَّامة . النفس التي تلوم ، لا النَّفس الميِّتة التي لا تبالي بأيِّ شيء ، سيَّان عندها الحلال والحرام ، والطَّاعة والمعصية ، والهدى والضَّلال .

هناك مَنْ ماتت أنفسهم ، كما نقول بالتعبير العصري : ماتت ضمائرهم . هؤلاء ابكوا عليهم ، فإنهم لا يبكون على أنفسهم لأنهم لا يحسُّون بأنَّهم موتى . قالت إحدى الفنَّانات التائبات بعد أن هداها الله ـ وقد سُئِلت : كيف تشعرين الآن؟ ـ : أشعر كأني حُييت من جديد ، وكنا قبل ذلك من الموتى ، وهذا تعبير صحيح . هناك أناس ميِّتُون وهم أحياء ، لأنَّ الحياة ليست حياة الأبدان ، الحياة حياة القلوب : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام:١٢٢) .

إذا رُزق الإنسان هذه النَّفس اللوَّامة ، أو هذا القلب الصَّاحي ، أو هذا الضَّمير الحيّ ، فقد رُزق خيرًا كثيرًا .

محاسبة السلف والصالحين لأنفسهم :

كان بعض الصَّالحين يكتب كلَّ عمل يعمله في اليوم ، أو كل قول يصدر منه ، في مُذكّرة أو دفتر أو نحو ذلك ، وفي آخر اليوم يُحاسب نفسه : لماذا قلتُ هذا؟ ولماذا فعلتُ هذا؟ وما كان أغناك عن هذا ، فإن «من حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[1]، وهكذا يومًا بيوم . وفي آخر الأسبوع ـ مساء الجمعة ـ يقف وَقفةً ليحاسب نفسه على ما صنع في الأسبوع ، وفي آخر الشهر يقف وقفةً يحاسب نفسه على ما صنع في هذا الشَّهر ، وفي كلِّ سنة يقدِّم (الحساب الختامي) كما يقول التجار ، ويقف مع نفسه ليحاسبها على الأعمال البارزة ، طوال السنة .

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٦٦ .

OBEIKAN.COM

هؤلاء هم أصحاب القلوب ، أصحاب الضمائر .

وقفة صادقة مع مرورُ عُمر الإنسان :

وهناك وقفة يقفها الإنسان مع نفسه كلَّ مدة من العمر ،كما فعل توبة بن الصمَّة، جاء في يوم وكان من المحاسبين لأنفسهم ، فنظر في عمره فإذا هو ابن ستين سنة ، فقال : ستون سنة ؟ كم يومًا فيها ؟ فحسبها فإذا هي أكثر من واحد وعشرين ألف وخمسمائة يوم . فقال : إذا كان كلُّ يوم فيه ذنب واحد ، أألقى الملك بواحد وعشرين ألف وخمسمائة ذنب؟! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم صاح صيحة فخرَّ مغشيًا عليه ، فجاءوا يحرِّكونه فإذا هو قد مات[1].

فَلَق الخوفُ من الله تعالى كبدَهُ ، فصعدت رُوحه إلى بارئها .

هذا هو شأن المحاسبين من المؤمنين ، حسابٌ يومي ، حسابٌ أسبوعي ، حسابٌ شهري ، حسابٌ سنوي ، حسابٌ ما بين الفترة والفترة أشمل وأشمل .

جدول المحاسبة :

كان الإمام الشهيد حسن البنا يعلِّم أتباعه أن يصنع كلُّ واحد منهم لنفسه جدولاً يسمَّى (جدول المحاسبة) ، يكتب فيه الأعمال الطَّيبة في ناحية ، والأعمال السيِّئة في ناحية أخرى ، ويُعطي لنفسه درجة : صفرًا أو ثلاثة من عشرة أو خمسة من عشرة أو سبعة من عشرة وهكذا .

الأعمال الطيبة مثل : هل حافظت على الصَّلوات في أوقاتها؟ هل أدَّيتها في جماعة؟ هل شعرت بالخشوع وأنت تؤدِّي صلاتك؟

هل تلوتَ وردك اليومي من كتاب الله؟

هل حافظتَ على أذكار الصباح والمساء؟

حينما أويت إلى فراشك هل ذكرت الله تبارك وتعالى؟ حينما قمت من فراشك هل ذكرت الله عزَّ وجلَّ؟ حينما خرجت من بيتك أو حينما ركبت سيارتك هل ذكرت الذكر المأثور؟

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/٤٠٦) .

OBEIKAN.COM

هل صُنْتَ لسانك عن الغيبة والنميمة والكذب والسخرية بالناس؟

هل أدَّيتَ إلى مسلم معروفًا لوجه الله عزَّ وجلَّ؟

هل ساهمتَ بعمل في خدمة الإسلام ونصرة دعوته؟

هل وَقفْتَ مع المسلمين الذين يعانون الأزمات والمجاعات والنكبات؟ هل هل؟

وفي جانب الأعمال السيئة : هل قلت بلسانك ما يغضب الله تعالى؟

هل وقعت في آفة من آفات اللسان ، وما أكثرها؟

هل نظرت بعينك إلى ما يغضب الله تعالى في التلفزيون وغيره؟

هل سمعتَ بأُذنك ما لا يحلُّ سماعه؟

هل مَدَدْتَ يدك إلى ما ليس لك؟

هل دخل في بطنك لقمة من حرام أو من شبهة؟ هل هل؟

المسلم يصنع لنفسه هذا الجدول ويحاسب نفسه ، ترى أينجح بدرجة مقبول؟ أم بدرجة جيد ؟ أم جيد جدا ؟ أم يرسب ؟ وهل يرسب رسوبًا له ملحق؟ أم رسوبًا لا ملحق فيه لأنه في أسفل الدَّرجات ؟

الإنسان مطالَبٌ أن يُحاسب نفسه ، لا يتركها هكذا .

تأديب النفس ومعاقبتها :

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما روى عنه أنس بن مالك ، يخاطب نفسه ويقول : عمر بن الخطاب بخ بخ ، والله لتتقينَّ الله أو ليُعذبنَّك[1] . وكان أحيانًا يمسك بالدِّرَّة التي يُؤدِّب بها العُصاة والمنحرفين ، فيضرب بها قدميه[2] . وفاتته صلاة الجماعة يومًا فتصدَّق بحائط قيمته مائتا ألف درهم[3]!

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٣٦٣٨) .

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٤٠٤/٤) .

(٣) ذكره الذهبي في الكبائر صـ١٧ . طبعة دار الندوة الجديدة ، بيروت .

OBEIKAN.COM

وكان عبد الله بن عمر إذا فاتته صلاة الجماعة ، قام تلك الليلة حتى الفجر ، فلم ينم فيها[1] . عقابًا لنفسه أن فاتته صلاة جماعة واحدة .

كانوا هكذا يعاقبون أنفسهم ، لم يكونوا يتركون الأنفس هكذا تفعل ما تشاء .

روى ابن أبي الدنيا في كتابه (محاسبة النفس) ، عن طلحة رضي الله تعالى عنه قال : انطلق رجل ذات يوم إلى الرَّمضاء في الظَّهيرة ـ الرَّمل الذي يكاد يكون جمرات تلتهب ـ فنزع ثيابه إلا ما سَتَر العورة ، وظلَّ يتمرَّغ في الرَّمضاء ويقول لنفسه : ذوقي فنار جهنَّم أشدُّ حرًّا ، أجيفةٌ بالليل بطَّالةٌ بالنَّهار ؟ ثم أبصر رسول الله ﷺ ، فجاء إليه ، وقال : يا رسول الله ، غلبتني نفسي ، فقال النبي ﷺ : « ألم يكن لك بدٌّ من الذي صنعت؟» . ثم قال له : « إن الله سبحانه وتعالى يباهي بك في سمائه». وجاء الصحابة يطلبون منه الدعاء . هذا يقول له : ادعُ لي . وهذا يقول له : ادعُ لي . فقال النبي ﷺ : « عُمَّهم» فقال : اللهمَّ اجعل التَّقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم ، واجعل الجنَّة مآبهم . هو يدعو والنبيُّ ﷺ يقول : « اللهم سدِّده»[2] .

أهل المراقبة والمحاسبة :

هذا هو شأن المحاسبين ، الذين يحاسبون أنفسهم ولا يَدَعونها تفعل ما تشاء .

كان الأحنف بن قيس ، كما حكى عنه بعض أصحابه يقول : صحبته بعض الليالي ، فكان عامَّة صلاته بالليل الدعاء والاستغفار ، وكان يُقرِّب أصبعه من المصباح حتى تلدغه النَّار ، ثم يقول لنفسه : لماذ فعلت كذا؟ ولماذا تركت كذا[3]؟

هذا هو شأن السلف في هذه الأمَّة ، كانوا يعيشون مع الله سبحانه وتعالى غير غافلين عن أنفسهم .

---

(١) رواه البيهقي في الشعب باب الصلوات (٢٩٢٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٥) ، عن ليث بن أبي سليم ، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤٠٧/٤) : حديث منقطع أو مرسل ، ولا أدري مَنْ طلحة هذا ؟

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٤/٢٤) .

OBEIKAN.COM

كان بعضهم يقوم الليل كلَّه ، كما رووا عن نبيهم ﷺ : أنه كان يقوم الليل حتى تَرِمُ قدماه[1].

وبعضهم كان يقوم حتى تنتفخ ساقاه وتتورَّم ، مثلما حُكِيَ عن مسروق ابن الأجدع : أن امرأته تراه هكذا وتقف خلفه وتبكي رحمة به[2]. وكذلك الأسود ابن يزيد ـ من أصحاب ابن مسعود ـ وكان علقمة يقول له : رحمةً بنفسك ، فقال له : إنَّما أفعل ما أفعل رحمةً بها ، إنما أريد كرامتها[3].

المحاسبة على قبول الأعمال الصالحة :

هكذا كانوا رضوان الله عليهم ، كانوا يحاسبون أنفسهم على كل شيء . كان منهم من يقوم الليل كلَّه ، ثم إذا جاء الفجر يقول : ترى أيقبل الله مني هذه الصَّلاة فأُهنأ ، أم يردَّها عليَّ فَأُعَزَّى؟ إن كان يردُّها علي فلا بدَّ أن أتدارك ذلك بصيام النهار ، وإن كان قد قَبِلَ هذا القيام مني فعليَّ أن أشكره بصيام النَّهار ! فيواصل الصَّيام بالقيام .

هؤلاء هم أهل الخشية من اللهِ عزَّ وجلَّ . هؤلاء هم عمَّال الله تبارك وتعالى .

هؤلاء هم أهل المراقبة والمحاسبة .

التشبُّه بهذه القمم الشامخة :

إننا نتحدث عن هؤلاء وكأنا نعيش في عالم آخر ، فأين نحن وأين هذه الذُّرا وهذه القمم الشامخة ؟ ولكننا نحاول أن نتقرَّب من هؤلاء ، عسى أن تلين القلوب الجامدة ، عسى أن تحيا الأنفس الميِّتة ، عسى أن تستيقظ الضَّمائر الغافلة ، ﴿ أَلَمْ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التهجد (١١٣٠) ، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٩) ، كما رواه أحمد (١٨٢٣٨) ، والترمذي في الصلاة (٤١٢) ، والنسائي في قيام الليل (١٦٤٤) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٩) ، عن المغيرة بن شعبة .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢٦/٥٧ ، ٤٢٧) .

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء (٤٠٩/٤) .

OBEIKAN.COM

﴿يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

(الحديد: ١٦).

كان داود الطائي يشرب الفتيت ـ الفتيت خبز مبلول بالماء ـ فيصبح شيئًا مفتتًا ، ليس مفتتًا بالثُّوربة ولا بالحليب ولكن بالماء ، ثم يبلعه . فقيل له : ألا تأكل الخبز؟ فقال لهم : إني وجدت بين شرب الفتيت وأكل الخبز قدر خمسين آية أتلوها من كتاب الله عزَّ وجلَّ[1]! ما له يُضيَّع هذا الأجر ، وكلُّ ذلك ينتهي إلى المعدة وكلُّه ينتهي بعد ذلك إلى حيث يعرف الناس؟!

هؤلاء هم الأيقاظ ، هم الأكياس : «الكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت»[2].

هؤلاء هم الأيقاظ ، هم الرجال :

إنَّ لله رجـــــالاً فُطنـــــا ... طلقـــوا الـــدُّنيا وخـــافوا الفتنـــا
فكَّـــروا فيهـــا فلمَّـــا عَلمُـــوا ... أنَّهـــا ليســـت لحـــيٍّ وطنـــا
جَعَلوهـــا لُجَّـــة واتخـــذوا ... صَالحَ الأعمـــال فيهـــا سُـــفُنا[3]

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، وأن يهيِّئ لنا من أمرنا رشدا ، وأن يغفر لنا ما مضى ، ويصلح لنا ما بقي .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنه الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

---

(١) رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٥٤) .

(٢) رواه أحمد (١٧١٢٣) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) ، وقال : هذا حديث حسن . وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٣١٩) ، عن شداد بن أوس .

(٣) من شعر الإمام الشافعي .

OBEIKAN.COM

الخطبة الثانية

فضل العمل الصالح في أيام العشر :

أيها الإخوة :

نحن في العشر من ذي الحجة ، و«ما العمل في أيام أفضل منها في هذه العشر»[1] كما جاء عن ابن عباس .

قيل : إنها هي التي أقسم الله تعالى بها في قوله : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (الفجر:١،٢) . ويُشرع صيام هذه الأيام والصَّدقة فيها ، والتَّسبيح والتهليل والتكبير ، وعمل الصَّالحات . يضاعف الله تعالى المثُوبةَ في هذه الأيام ، وخصوصًا صوم التاسع (يوم عرفة) ، فإنَّ النبي ﷺ قال : «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده»[2] . ولا بعيد على الله تبارك وتعالى أن يفعل ذلك ، وما أكثر ذنوبنا التي تحتاج إلى تكفير ، وإلى تطهير .

واحرصوا ـ أيها الإخوة ـ على التكبير عقب الصلوات ، ابتداءً من فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق (ثلاثة وعشرين صلاة) .

شهود النساء صلاة العيد :

واحرصوا كذلك على صلاة العيد ، وخُذُوا أولادكم . وليتَ الذين يُشرفون على المُصلَّيات هنا يجعلون مكانًا للمسلمات كما كان الأمر عند رسول الله ﷺ . فقد قالت أم عطية : أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهنَّ في الفطر والأضحى : العواتق والحُيَّض وذوات الخدور ، فأما الحُيَّض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ، قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ، قال : «لتلبسها أختها من جلبابها»[3] . فهذه سُنَّةٌ هجرها الناس وأماتوها ، «مَن أحيا سنة من سنتي قد

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٣ .

(٢) سبق تخريجه صـ١٣٥ .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٩٧٤) ، ومسلم (٨٩٠) ، كما رواه أحمد (٢٠٧٩٣) ، وأبو داود في الصلاة (١١٣٦) ، والنسائي في العيدين (١٥٥٩) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٠٨) ، عن أم عطية .

OBEIKAN.COM

أميت بعدي ، فإنَّ له من الأجر مثل من عمل بها غير أن ينقص من أجورهم شيء»[1]. وقد أعجبني في العيد الماضي أن بعض المصلَّيات جعلت مكانًا للنساء ، فهذا يوم مهرجان إسلامي يحضر فيه الرجال والنِّساء والصبيان ، حتى المرأة المعذورة الحائض تحضر ، لا تشارك في الصلاة ، ولكن تشهد الخير ودعوة المسلمين .

إقامة سنة الأضحية :

واحرصوا ـ أيها الإخوة ـ على إقامة سنَّة الأضحية . وحبَّذا لو أنَّ المسلم وكَّل من يذبح له في بلد من البلاد الإسلامية ، المنكوبة بالمَجَاعة أو الغزو أو نحو ذلك . ولجنة (مشروع كافل اليتيم) بقطر تقوم بهذا ، كما نبَّهنا في الأسبوع الماضي في أكثر من خمس وعشرين قُطْرٍ من الأقطار . فسارعوا إلى هذا والله تعالى يتولاكم .

نداء لمساعدة المسلمين في البوسنة والهرسك :

وقد جاء من وزارة الأوقاف جزاهم الله خير الجزاء هذا النِّداء لمساعدة المسلمين في البوسنة والهرسك .

أيها الإخوة الكرام :

جميعنا يسمع ويرى ما يجرى لإخوتنا المسلمين في البوسنة والهرسك من ذبح واغتصاب وتشريد وتقتيل وتدمير ونسفٍ لبيوت الله ، إنه سَيْل عات من الإجرام والوحشية على أيدي عصابات الصِّرب الحاقدين المتوحشين .

أيها الإخوة :

إن شعبًا مسلمًا كريمًا يتعرَّض للإبادة والإزالة من الوجود ، تحت سمع وبصر العالم ، الذي يكتفي بأن يقف متفرجًا يتابع المأساة البشعة ، ولا يكاد يفعل شيئًا لإيقاف العدوان ، وإنقاذ الضَّحية التي يتولَّى الوحش الصِّربي تقطيعَ أوصالها ، واستنزاف دمائها ، ويومًا بعد يوم ، وقد مُنع عنها السِّلاح التي تدافع به عن نفسها ، بتواطؤٍ مشبوه ممن يملكون القرار في عالم اليوم .

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٧٧) ، وقال : حديث حسن ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٩) ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (١٦) ، عن عمرو بن عوف المزني .

أخي المسلم : كيف يهنأُ لك عيش ، وتقرُّ لـك عـين ، وإخوانـك وأخواتـك في الدين والعقيدة هناك ، يتعرَّضون لهذا العدوان الغادر الغاشم ، ولـيس لهـم ذنـب إلا أنهم مسلمون يقولون : ربُّنا الله؟ لقد حافظوا على هذه العقيدة السَّمْحَة طوال العهود السَّابقة ، رغم الإلحاد الذي حكم بلادهم خمسة عقود مـن الـزمن . وهـم مـن أبنـاء البلاد الأصليين وليسوا فيها دخلاء ولا غُربـاء ، فهـل هـذه هـي حقـوق الإنسـان في القرن العشرين ، في ظل النِّظام العالمي الجديد؟

أيها الإخوة الكرام :

إنَّ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تَهيبُ بكم جميعًا ، وتدعوكم أفرادًا وشركات ومؤسسات ، أن تقوموا بأداء شيء من الواجب تجاه إخوانكم مسلمي البوسنة والهرسك ، بالتبرُّع بما تستطيعون من أموال في الحسابات التَّالية : حساب رقم (٩٧٠٤٧) في مصرف قطر الإسلامي . وحسابات أخرى على كل حال ممكن أن يقرأها بعض الإخوة عليكم ، وهي تذاع باستمرار وموجودة في الجرائد ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (سبأ:٣٩) انتهى .

فعلاً ـ أيها الإخوة ـ كيف يهنأ لنا بال ، ونجمع على موائدنا من الطَّعام أطيبه ، ومن الأشربة أعذبها ، ونُلبس أولادنا وأنفسنا من الثِّياب أحسنها ، ونَنْعم بهذا كلِّه ، وإخواننا مُشرَّدون مُعذَّبون مُقتَّلون مُدمَّرون؟ لا يطيبُ لنا عيش والله . أقل واجب : أن نمدَّ يد المساعدة إلى هؤلاء ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، والله يتقبَّل منا ويقبلنا .

دعاء :

اللهم أعزَّ الإسلام وأيد المسلمين . اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السُّفلى ، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم عليك باليهود الغادرين ، اللهمَّ عليك بالصَّربيين الصَّليبيين الحاقدين المتوحشين ، اللهم عليك بالهندوس المشركين المتعصِّبين ، اللهم عليك بالشيوعيين الملحدين الجاحدين ، اللهم عليك بالعلمانيين اللادينيين المنافقين ، اللَّهمَّ عليك بالظَّلَمة

الطُّغاة الجبَّارين . اللهمَّ ردَّ عنَّا كَيْدَهم وفُلَّ حَدَّهم ، وأنزل على جَمْعهم بأسَكَ الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين .

اللَّهمَّ انصرنا نَصْرًا مؤزَّرًا ، وافتح لنا فتحًا مبينًا ، واهدنا صراطًا مستقيمًا ، واجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحْسِنْ عاقبتَنَا في الأمور كلِّها ، وأَجِرْنا من خِزي الدُّنيا والآخرة . اللهمَّ انصر إخواننا المستضعفين في كلِّ مكان ، اللهم احرسهم بعينك التي لا تنام ، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام .

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئنًا ، سَخَاءً رَخَاءً ، وسائرَ بلاد المسلمين ، اللهمَّ احفظ شبابنا وبناتنا بالإسلام ، اللهم أعزَّهم بالإسلام وأعزَّ بهم الإسلام .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠) .

* * *

OBEIKAN.COM